الفصل السادس

علم الاجتماع الحربى

شعبة حديثة من شعب الدراسات الاجتماعية استأثرت بعناية بعض علماء الاجتماع لاسيما فى الظروف الحاضرة التى تنذر بين الحين والحين بوقوع اشتباكات وحروب عالمية خطيرة تضع مصائر الشعوب أمام مواقف وصعوبات اجتماعية تنوء المجتمعات بتبعاتها ومسئولياتها الجسام كما حدث بصدد المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية التى تخلفت بصفة خاصة بين الحربين العالميتين الكبيرتين . وقد تقدمت سوسيولوجيا الحرب فى البلاد المتقدمة مثل أمريكا وروسيا وإنجلترا وأصبحت تتناول ظاهرة الحرب ذاتها بوصفها ظاهرة اجتماعية كامنة فى طبيعة المجتمع الإنسانى ولها أسبابها العميقة التى لاتخرج عن كونها أسباباً اجتماعية . ولذلك لا يقتصر أصحاب هذه الدراسات على دراسة الحرب فى ذاته ووضع النظريات المفسرة لنشأته وتطوره ودوافعه ولكنهم أدركوا فضلا عن ذلك أن قوة الدفاع لا تتوقف فحسب على إعداد الجيوش وتدريبها فنياً وتزويدها بأحسن الأسلحة وأحدث العتاد، بل ينبغى أن تدخل فى تقدير المشرفين على شئون الدفاع ، الاعتبارات الاجتماعية لأن الجيش قوة جمعية وطاقة يمكن استغلالها إلى أقصى درجات الشدة إذا أحسن توجيهها اجتماعياً وسيكولوجياً ، وأمكن القضاء على ما يراود أفرادها من مشكلات أو علاقات سيئة ونحن نعرف أن العلاقات الاجتماعية بين الأفراد بين مد وجزر وأخذ وعطاء وتجاذب وتنافر . هذا إلى المشكلات التى تربط هؤلاء بأسرهم وبالمجتمع الخارجى . ثم الترفيه والخدمات الاجتماعية ووسائل الدعاية والإعلام والترشيد الاجتماعى وربط القوة الحربية بالغايات الاجتماعية. هذه كلها دراسات هامة تدخل فى نطاق سسيولوجيا الحرب . فلا ينبغى إذن الاقتصار على ما تقدمه العلوم الطبيعية والفنون التكنولوجية من خدمات لاستغلال الطاقة المادية فى الجيوش ، بل ينبغى الاهتمام كذلك بما تقدمه العلوم الإنسانية وخاصة علماء النفس والاجتماع من دراسات وبحوث لها فائدتها المحققة فى هذا الصدد .

وتستمد معظم الدراسات الحربية الحديثة ركائزها من فلسفة داروين وسبنسر وأتباعهما (فكارو ونوفيكوف وجمبوفتش وراتزنهوفر) فى الأصول الحيوية للكيان الاجتماعى ومبادئ تنازع البقاء والانتخاب الطبيعى والبقاء للأصلح وما إلى ذلك ، وتطبيق هذه المبادئ على دراسة ظاهرة الحرب .

ولكن الدراسة التاريخية التحليلية تسوقنا إلى زمن بعيد . فالمبادئ والتصورات التى تنطوى عليها فلسفة القوة ليست وليدة الفكر المعاصر ولكنها قديمة قدم ظاهرة الحرب وعالجها المفكرون القدامى الذين شاهدوا الحروب والانقلابات وانهيار المدنيات والحضارات القديمة على أثرها ، ولمسوا مبلغ ماقاسته الشعوب القديمة من ويلات وآثار الخراب والدمار ، بالرغم من أن الحروب القديمة كانت محدودة النطاق إلى حد ما ولم تكن على مستوى التدمير الشامل مثل الحروب الحديثة .

وإذا رجعنا إلى أغوار التاريخ ، نجد أن معظم الكتب والتعاليم الشرقية تردد أن التاريخ العام لحياة البشر هو تاريخ صراع بين قوتى الخير والشر . فهناك حرب فى الطبيعة تنعكس آثاره على العلاقات بين الجامعات الإنسانية وبين الأفراد لأن فى الطبيعة قوى تعمل للخير وأخرى تعمل للشر . . الأولى تعمل للسلام والثانية تثير الحروب والثورات . ومادام الخير والشر متأصلين بصفة طبيعية فإن الحروب لن تخبو لها أوار .

ونجد أن طائفة من المفكرين والفلاسفة الأول فى مختلف البلاد فلسفوا هذه التعاليم وربطوها بأصول طبيعية وذاتية واجتماعية وبذلك وضعوا أولى اللبنات فى فلسفة الصراع والقوة وما ينتج عنها من قيام الحروب والثورات والانقلابات .

ولعل أقدم أثر يعالج هذه الظاهرة بشىء من التفصيل ماجاء فى كتابات السياسى الهندى القديم « كوتيلا نشاناكيا » . كان براهميًّا وأدرك القيمة السياسية للدين ولكنه فصل بينه وبين السياسة فكأنه سبق بتعاليمه ووصاياه ماجاء به « ميكيافيللى » المفكر الإيطالى فى القرن السادس عشر . أراد أن يدون للأجيال القادمة آراءه السياسية والعسكرية فوضع كتابا اسمه « ارذا شانسترا » يعتبر من أقدم تراث الأدب السنسكريتى . بدأ بتحليل طبيعة الإنسان ووصفه بأنه جشع أنانى يميل بطبيعته إلى إذلال أخيه الضعيف وتسخيره لخدماته . وكأنه سبق أيضاً بهذه التعاليم الفيلسوف الإنجليزى « هوبز » واعتبر

الحرب طبيعية بين قوى البشر كما أن القوة طبيعية فى علاقات الأفراد . والحرب ضرورة ولازمة لتأييد الحكم المطلق واتساع نطاق الإمبراطوريات . والقوة العسكرية مطلوبة لذاتها لتقرير الهيبة وتأكيد السيطرة والسلطان ولذلك كان ينادى بتقرير أقسى العقوبات والإسراف فى الجزاءات صوناً لمقدرات النظام السياسى .

وفى التراث الصينى القديم نجد اهتماماً بدراسة ظاهرة الحروب نظراً لما كانت تقاسيه الشعوب القديمة من جراء حملات الإبادة وموجات الغزو والعمرانى وتيارات الكر والفر أمام هذه الموجات . فقد ورد فى « دستور جو » وهو من أقدم التراث الصينى ضرورة إسناد شئون الحرب إلى وزير مسئول ليقوم على إعداد الجيوش والإشراف على التربية العسكرية والتعبئة القومية لأن الحروب ظاهرة طبيعية تهدد السلام شأن كوارث الطبيعة التى تهدد الأمن الاجتماعى . ودرس كونفوشيوس هذه الظاهرة فى كتابه التاريخ «Chou King» وكشف عن أسبابها الطبيعية والسياسية والقانونية . وبحث فى أفضل الوسائل للقضاء على الحروب التى تهدد دول العالم فى عصره لاسيما أنه كان ينشد السلام ويسعى لتحقيق جمهورية عالمية واحدة ترتكز سياستها على المبادئ الاشتراكية .

وكان اليونان القدامى يعبدون « إله الحرب » كما يعبدون الآلهة الأخرى ويقدمون له الضحايا والقرابين اتقاء لشروره وإرضاء لشهواته . واهتم بعض فلاسفتهم بدراسة ظاهرة الحرب دراسة تحليلية ويعتبر « هراقليطس » من أوائل المهتمين بهذه الدراسات ، يقول : إن الخير والشر والكون والفساد أمور تتلازم فى النظام الطبيعى العام . والأشياء فى تغير دائم مستمر ، والحرب والصراع هما أب الأشياء إذ لولا الخطر لما كانت الشجاعة ، ولولا الحرب لما كان السلام ، ولولا الشر لما كان الخير .

وتكلم أفلاطون فى هذه الظاهرة وندد بما تنطوى عليه من مظالم . ونادى بأنه لا ينبغى على الدولة أن تجعل من الحرب غرضاً ذاتيًّا تسعى إليه ؛ كما كانت تعمل بعض المدن فى عهده للحصول على الشهرة الحربية والعسكرية ، بل يجب أن تعمل على استقرار السلام باتقاء الخصومات مع الخارج بقدر ما تتقى الثورات الداخلية . وينبغى ألا ترتكب المظالم مع غيرها من الدول ولا تغالى فى حمل السلاح بل تقتصر فى هذا الصدد على ما يعينها على الدفاع عن كيانها إذا هاجمها منافسون ظالمون بالرغم مما لها من الفضائل .

وتكلم أرسطو فى الحرب وعالج قيام الثورات وكشف عن أسبابها العميقة الكامنة فى طبيعة الاجتماع السياسى . وفى كتابه السياسة عرض مفصل لكل ما يتصل بهذه الظاهرة .

وتناول كثير من مفكرى الرومان هذه الظاهرة بالدراسة والتحليل . وكان يؤثر عن «سنكا» قوله « الحياة هى الحرب «Vivre militare est» » والحرب هى حياة الإنسانية Milita est vita homonis وتكلم عنها شيشرون فى كتابه « فى الواجبات De officius وشرح مبادئ الحرب والسلم وعقد المعاهدات ، ونعى على الظلامات الصارخة التى تسببها الحروب . ولذلك نراه يدعو إلى قيام جمهورية عالمية ، تنتفى فيها قيام الحروب ، ويدعو إلى تحقيق الحريات وحقوق الشعب وضرورة احترامها . ويعتبر كتابه المشار إليه أول كتاب فى العالم القديم يدافع عن فكرة العدالة حتى بالنسبة للأعداء .

ومن بين مفكرى المسيحية يهتم « أوغسطين » بالكلام عن الحرب . يقول : العدالة قاعدة الاجتماع السياسى ؛ ولا يمكن تأييدها إلا بالقوة . فالحرب إذن مشروعة . بيد أنها لا تكون كذلك إلا إذا كانت الوسيلة الوحيدة لرد العدوان أو المحافظة على حقوق مهددة بالضياع . أما إذا كانت وسيلة للفتح والقهر والاستيلاء فما أبشعها من أداة . وأوصى بالاستبسال فى الحرب والإذعان للقادة حتى ولو كانت الحرب ظالمة لأن المسئولية والإثم فى ذلك إنما يقعان على صاحب السلطة التى شنها وأمر بها . وما دامت الحرب ضرورية ولا غنى عنها فى الحياة الاجتماعية فينبغى الاستعداد لها حتى لا يؤخذ الشعب على غرة ؛ بالرغم من أنه كان يكره الحرب ويدعو إلى السلام . وكان يفضل الدول صغيرة الحجم القانعة بوسائلها المحدودة والتى لا تثير الحروب وتلجأ إلى الغزو . وكم كان يسره أن يرى الإنسانية جمعاء تعيش فى صورة مجتمعات صغيرة أو دويلات ضيقة النطاق يرفرف عليها السلام وتستظل بفيء من المحبة والإخاء كما تعيش العائلات ذوى القربى .

وردد هذه الآراء (سان توماس الأكوينى) عندما تكلم عن نظرية الدولة وحدد وظائفها فى الداخل والخارج . فمن الناحية الخارجية يجب عليها أن تستعد ضد أخطار الغزو — ومن ثم فالاستعداد للحرب وظيفة جوهرية لتأمين سلامتها فى الخارج ؛ كما أن التشريع وظيفة جوهرية لتأمين سلامتها فى الداخل . وقرر مشروعية الحرب فى الحالات الآتية :

(ا) إذا أعلنتها سلطة شرعية وباشرتها بنفسها .

(ب) إذا كانت لدفع ظلم أو استرجاع حقوق مهضومة أو لأسباب عادلة .

(حـ) متى كانت مقصورة على تحقيق أهدافها وليست لغرض الفتح والغزو وحب التسلط .

وناقش فى ثنايا حديثه عن هذه الظاهرة أموراً جزئية تتعلق بجواز النفاق والتغرير بالعدو حبًّا فى النصر ، وجواز استمرارها فى الأيام الحرم وأيام الأعياد وما إليها . وناقش مسألة اشتراك رجال الدين فى أعمال الميدان . وقال إنه لا ضير من الانتفاع برجال الدين فى أعمال تتفق مع طبيعتهم الروحية . وهى استخدام الأسلحة الروحية لتأييد الحرب وتشجيع القائمين بها . وتتمثل هذه الأسلحة فى الوعظ والإرشاد والتعبئة الروحية وإعلان الجهاد وإقامة الشعائر فى الميدان .

واهتم المسلمون بظاهرة الحروب . وتكلم الكثيرون منهم فى مشروعيتها ولاسيما حروب الجهاد وساقوا من الآيات والأحاديث ما يعزز وجهة نظرهم . وكانوا فى غزواتهم يحملون كتاب الله فى يمينهم وسيفه المسلول فى شمالهم . وقد كتب ابن خلدون فى مقدمته دراسة وصفية تحليلية لهذه الظاهرة .

اعتبر الحرب أمراً طبيعيًّا فى البشر لا تخلو عنه أمة ولاجيل وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض . وسبب هذا الانتقام فى الأكثر إما غيرة ومنافسة ، وإما عدوان ، وإما غضب لله ولدينه ، وإما غضب للملك وسعى فى تمهيده .

فالأول أكثر ما يجرى بين القبائل المجاورة والعشائر المتناظرة والثانى وهو العدوان أكثر ما يكون فى الأمم الوحشية والقبائل التى جعلت أرزاقها فى رماحها ومعاشها فيما بأيدى غيرها . والثالث هو المسمى فى الشريعة بالجهاد . والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمنافقين لطاعتها .

ويستطرد ابن خلدون وهو بصدد دراسة هذه الظاهرة إلى وصف تكتيكات الحروب من الزحف والكر والفر والمباغتة . وما ينبغى أن يكون عليه تشكيل الجيش فى الميدان وطريقة إعداده وتجهيزه مستشهداً بكثير من التجارب التى وقعت لجيوش المسلمين وغيرهم من الغزاة والفاتحين . ويقدم طائفة من الوصايا والحكم للقادة والجند مستشهداً كذلك بالآيات

والأحاديث والأقوال المأثورة مما كان يجرى على الألسنة حتى عهده . كما يستشهد بطائفة من الوصايا التى كتبها الخلفاء الراشدون لقوادهم مثل وصية الإمام على رضى الله عنه لأصحابه يوم « صفين » وخطاب عمر لأبى عبيد بن مسعود لما ولاه حرب فارس والعراق ؛ وقصيدة الشاعر الأندلسى أبى بكر الصيرفى فى مدح القائد المظفر تاشفين بن على بن يوسف . وهذه الوصايا والحكم فى مجموعها تشكل ثمرة التجارب التاريخية فى ميدان الحروب وهى أعز ذخيرة للحاكم أو الأمير الذى يريد أن يتمتع بالسيادة والسلطة ويحرص عليهما بقوة وحزم بعيداً عن ثورات الداخل واعتداءات الخارج وهى تشبه فى كثير من الوجوه ما قدمه المفكر الإيطالى « مكيافيللى » فى كتابه « الأمير » . فليس ثمة شك أن ابن خلدون سبق مكيافيللى فى تقريره هذه الاعتبارات وكان أستاذاً غير مباشر له . وتكلم ابن خلدون فى موضوع هام وهو مدى استغلال السياسة فى سير الحرب واستعجال النصر والإجهاز على العدو ، كما تكلم فيما نسميه الآن بالحرب الباردة والدعاية وتعبئة الرأى العام . وهذه الدراسات وما إليها تدلنا على سعة أفق ابن خلدون وعمقه وإلمامه بالشئون الحربية والعسكرية .

وفى صدر العصور الحديثة ومنذ نشأة القوميات المعاصرة اهتم مفكرون كثيرون بدراسة « ظاهرة الحرب » . تكلم فيها مكيافيللى وترك بحثاً فى فن الحرب يدور معظمه حول الوسائل التى يلجأ إليها الأمير لتحقيق الوحدة القومية . وكان « مكيافيللى » فى هذا البحث أستاذاً غير مباشر لرسول الوحدة الإيطالية « ما زينى » . وتكلم فيها « هوبز » فى كتابه (Leviathan) واعتبرها حالة طبيعية بين البشر فالإنسان بفطرته ذئب لأخيه الإنسان . ودرسها « منتسيكو » فى كتابه « روح القوانين » وناقش الظروف الاجتماعية والسياسية التى تدفع إليها . وقرر أن حالة الحرب حالة طبيعية تنشأ بين الأمم بعد استقرارها واستكمال خصائصها . وهى فى نظره ظاهرة غير سوية . فإذا كان الاسترقاق إهداراً لكرامة الفرد وحريته ، فكذلك الحروب استنكار لحرية الشعوب وإهدار لكرامتها وهو لا يقر إلا نوعين منها : ما كان بقصد الدفاع عن حق مسلوب وما كان بقصد تنفيذ معاهدة دولية . ويحمل حملة شعواء على ما دون ذلك من أنواع الحروب الأخرى التى يقوم بها الملوك والطغاة لنيل المجد وتوسيع نطاق ممالكهم واستعمار الغير ووصفها بأنها حروب زائفة غير عادلة .

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر حتى الربع الأول من القرن العشرين اتخذ معظم

المفكرين مما أذاعه دارون وسبنسر فى تنازع البقاء والصراع من أجل الحياة والبقاء للأصلح ؛ مادة للدراسة والبحث وخاصة فى فلسفة الحرب . نذكر من بين هؤلاء جمبلوفتش وراتز نهوفر وفكار ووفيرى ونوفكوف وفيرورو ونيقولاى ومن إليهم . ولو أن هؤلاء خرجوا بالمفاهيم المشار إليها عما كان يقصد إليه دارون .

وذلك لأنه فى كتابه (أصل الأنواع) استعمل مفهوم « الصراع من أجل الحياة » فى معان متعددة : معنى واسع كل السعة يتضمن ظواهر التعاون المتبادل والحماية وبقاء النوع وردود الفعل من جانب الكائنات للدفاع وصيانة مقوماتها ؛ ومعنى ضيق ويتضمن الصراع والعنف والإبادة . فكأن دارون لم يحدد مفاهيمه وتركها مرنة . وهو نفسه يقول إنه نظراً لتعدد المعانى المقصودة فإنه يرى من السهل وبكل بساطة أن يستعمل عبارة الصراع من أجل الوجود «Struggle for existence»[١] .

وهذا يدلنا على أن هذه المفاهيم استعملت فى تعميمات غير دقيقة بدون أن تنطوى على تحليل منهجى للحقائق : فمثلا يقول ماركس « إن تاريخ المجتمعات الموجودة هو تاريخ الصراع الطبقى » ويقول نوفيكوف « إن قانون الصراع هو القانون الكلى الأكثر عمومية » ، ويقول فيرى « إن الصراع من أجل الوجود قانون موروث فى الإنسانية كما أن مظاهره مرئية فى كل الكائنات الحية » وهكذا حاول هؤلاء وغيرهم من أتباع دارون وسبنسر أن يجعلوا من « الصراع » مبدأ أوليًّا «a priori» وعاملا وحيداً للتطور الاجتماعى وذلك لتبرير العنف والقوة وتأييد نوازع الحرب[٢] .

وقد استهوت فلسفة الحرب طائفة كبيرة من فلاسفة الألمان الذين راحوا يمجدون القوة ويطبقون نظرية الصراع وبقاء الأصلح على ظواهر الحياة الاجتماعية فى ميدان السياسة والاقتصاد والأخلاق . فالسياسة هى سيادة الأقوى والدولة لا تقوم إلا على القوة وبفضل القوة ؛ والاقتصاد هو صراع الأقوى ؛ والأخلاق الحقة هى أخلاق العنف وإرادة الأقوى والأقدر . وجعل هؤلاء من الحرب وظيفة اجتماعية وأنها يجب أن تشن بلا رحمة ولا هوادة لأن العنصر الأقوى هو الذى يجب أن يسود . وقد سبق أن أشرنا عند حديثنا عن المدرسة الألمانية أن هيجل وفخت ونيتشه كانوا من أوائل المؤيدين لهذه الأفكار وأيضاً المفكر السياسى

---

(1) Sorokin — Contemporary Sociological theories p. 311 Sqq.

(2) Sorokin (Ibid).

«جيللنك Jellineck» الذى كان يرى أن الحرب هى مصدر النظام القانونى وأهم وسيلة للتقدم . وكان « شبنجلر » من أقوى دعائمها فقد ذهب إلى أن الحرب ضرورية ولازمة أما السلم فهو حلم من أحلام اليوتوبيا السياسية . ولذلك يجب أن يستبعد هذا اللفظ من معجم المعاملات الدولية كما تستبعد مفاهيم العدالة والمساواة والأمن . لأن القهر والقوة هما أساس الحق والعدل .

وقد أثرت هذه الأفكار تأثيراً كبيراً فى تفكير الشعب الألمانى وفى اتجاهاته العملية . ولا شك أن أنصار هذا الاتجاه هم الذين رسموا وحددوا الخطوط الرئيسية للسياسة الألمانية منذ بداية القرن التاسع عشر حتى قيام الحرب العالمية الثانية . وهم الذين نفخوا فى الشعب الألمانى فحولوه من أقصاه لأقصاه إلى قلعة عسكرية وأصبح يدين بالعنصرية وبفكرة شعب الله المختار ويطأطئ الرأس لمجد القوة والعظمة وحب السيادة والسلطان .

واستهوت فلسفة القوة أيضاً بعض كبار فلاسفة روسيا مثل باكونين وكروبتكين ونوفيكوف ولكنها لم تقع فيهم كما وقعت فى فلاسفة ألمانيا ؛ ولم تؤثر فى روسيا ذلك التأثير الواضح الذى تركته فى عقلية الشعب الألمانى وروحه وأيديولوجيته وخاصة فى الفترة مابين الحربين العالميتين . ولذلك نجد أن هؤلاء الفلاسفة بالرغم من دراستهم لظاهرة الحرب غير أنهم نقدوا الداروينية وفلسفة الصراع وقارنوا بين تطبيقاتها فى عالمى الحيوان والإنسان . فذهب « باكونين » إلى أن الحرب ضرورية والثورات لازمة ووسائل القمع والإرهاب لا مندوحة عنها لإزالة المعوقات التى تقف فى طريق التطور . ذلك التطور الذى ينساب آلياً نحو أهداف محددة غايتها البعيدة تحقيق مبادئ الحرية والتحرر ؛ ومثل المبادئ لا يمكن أن تتحقق فى عالم تسوده عوامل الصراع وتحكمه مبادئ البقاء الأصلح . وعرض زميله « كروبتكين » نقداً للداروينية فى كتابه « المساعدة المتبادلة عامل من عوامل التطور » وأوضح أن فلسفة الصراع وتحكم القوة وحتمية البقاء للأصلح ، ليس لها وجود لا فى عالم الحيوان ولا فى عالم الإنسان . وأثبت بالأدلة والحقائق الموجودة والأمثلة المستمدة من ممالك النبات والحيوان والإنسان ، أن الدور الرئيسى فى تاريخ التطور إنما تقوم به صفات وعوامل التعاون باعتبارها مميزة فى ذاتها عن صفات الصراع وعوامله ، والأفراد والأنواع التى كتب لها البقاء هى التى زودت تلقائياً بأقوى ملكات التعاون ، أما التى تتغلب فيها عوامل الصراع فإنها صائرة لا محالة إلى الفناء . وبرهن « كروبتكين » على أن قانون المساعدة المتبادلة

الذى يحكم مجرى التطور ينعكس فى الحياة الاجتماعية فى صورة مبادئ الحرية والعدالة والمساواة والتضامن الاجتماعى . وقد شرحنا هذا بالتفصيل فيما سبق . ونقد (نوفيكوف) مبادئ دارون وعرض فى كتابه (مظاهر الصراع بين المجتمعات الإنسانية وأدوارها المتعاقبة) أربعة مظاهر للصراع البشرى « الفزيولوجى ، والاقتصادى ، والسياسى ، والعقلى » وهذه المظاهر هى المؤدية إلى الحروب فى مختلف أشكالها . ويصورها العلامة سوروكن فى الجدول الآتى[1] :

مظاهر الصراع من أجل الحياة	الأغراض التى تحققها	الأشكال التى تظهر فيها
١ ـ الصراع الفسيولوجى	الإبادة والاستئصال والحصول على الطعام .	أكل لحوم البشر ، القتل وسفك الدماء . الحرب للحصول على الطعام و إبادة العدو
٢ ـ الصراع الاقتصادى	تحقيق مطالب ووسائل البقاء وجمع الثروة وتنميتها والملكية وزيادتها والحروب الاقتصادية .	النهب والسلب وقطع الطرق والقرصنة والمنافسة الاقتصادية والمظاهر المختلفة للإكراه والضغط على العدو لسلبه ونهبه
٣ ـ الصراع السياسى	الحصول على امتيازات اقتصادية بوسائل سياسة التسلط السياسى للانتفاع بها فى كل القطاعات ، التهديد ، توقيع الجزاءات وتنفيذها ـ الحروب السياسية .	اغتصاب السلطة ـ الاسترقاق والعبودية ـ التخريب والغزو والضم
٤ ـ الصراع العقلى	الصراع للسيطرة والتسلط العقلى أو لسيطرة دين ، وفكرة ، مبدأ ، عقيدة أو حضارة أو ثقافة و وسائل ذلك : الدعاية والنقد ، التدريب ، وسائل التمثيل والتذويب المختلفة ، الاضطهاد الفكرى والعقائدى	ـ الحروب الدينية والثورات والانقلابات وكبت الحريات والصراع الثقافى والعقلى وما إليها

(1) Sorokin ; Contemporary Sociological theories p. 315.

وبعد تحليل المظاهر المشار إليها يقول إن المؤيدين لنظرية الحرب على حق لأن الحرب هى الحياة والصراع من أجل البقاء يؤكد هذه الحياة . وبدون مظاهر الصراع والكفاح تتردى المجتمعات فى سبات عميق وتستنيم لسكون مطلق وموت محقق . ولكن الخطأ كل الخطأ هو اعتبار الحروب ومظاهر الصراعات المختلفة هى كل ما ينبغى أن تلجأ إليه البشرية لتأكيد وجودها وبقائها . فإنه بجانب الصراع البيولوجى ، توجد الأشكال الأخرى التى أشرنا إليها وهى وقفاً على عالم الإنسان ولا توجد فى مملكة الحيوان . هذا إلى أن مظاهر الصراع الفزيولوجى (الدموى) آخذة فى الانقراض ليس فقط فى مملكة الإنسان بل وبين معظم فصائل الحيوانات الراقية . ولذلك يحمل على نظريات دارون وراتز نهوفر وجمبلوفتش قائلا إن القانون الداروني ، فى غير ما حكمه ، يمنع الإنسانية ككل من أن تتحد فى وحدة فيدرالية ينعم البشر فى ظلها بالسلام والمحبة والتعاون المتبادل . ومهما كان الصراع عاملا أساسيًّا فى مناشط الحياة فإن مظاهره الدموية قد خفت حدتها ، وحلت محلها مظاهر أكثر إنسانية ، وأكثر تهذيباً ووداعة . وفى طريق الإنسانية الطويل سوف تختفى كل المظاهر الفزيولوجية للحروب التى تنطوى على إراقة الدماء وإفناء البشر وتحل محلها مظاهر الصراعات الثقافية والعقلية ويعتبر كتابه (الحرب وفوائدها المزيفة المنشورة عام ١٨٩٤) صدى لهذا الاتجاه السلمى فى تقييم الداروينية . فقد تكلم عن الحروب وعرض وجهات نظر المؤيدين لها والمعارضين وفند ادعاءات وأحاجى هؤلاء وأولئك .

وفضلا عن ألمانيا وروسيا ، سيطرت نظريات الحرب والصراع والقوة على مفكرين فى النمسا وسويسرا وإيطاليا (جمبلوفتش ، وراتزنهوفر ، وفيرى ، وفيريرو ، ونيقولاى ، وفكارو) وكان الأخير من أقوى المدافعين عنها . يقول (فكارو) إن البشرية فى سبيل حب البقاء والصراع من أجل الوجود شاهدت وعاصرت نطاقات متداخلة من صراعات متعددة . فأولا صراعها مع البيئة الكونية واللاعضوية مشتركة فى ذلك مع مملكتى النبات والحيوان (وذلك للانتصار على القوى الكونية والطبيعية التى تتربص بها) . وثانياً صراعها مع البيئة العضوية منفردة فى ذلك ضد الممالك الأخرى (وذلك لترويض الحيوان واستئناسه والحماية من الضوارى وتهذيب النباتات البرية والقضاء على الضارة منها) . وثالثاً صراعات ضد البيئة فوق العضوية أى الإنسان وجهاً لوجه مع زميله الإنسان . إذ لابد للبيئة البشرية

(1) Novicoff — La Guerre et ses Prétendus Bienfaits.

أن تكيف نفسها مع بعضها البعض : الجماعات الخارجة ضد بعضها البعض ، والأفراد فى نطاق الجماعات الداخلية ضد بعضهم البعض . وكان هذا يستلزم الحرب والعنف الذى لا هوادة فيه . وكم من جماعات مستضعفة أبيدت وأخرى أجهز عليها ، وبعضها قاوم تحت ضغط عوامل القهر والإرهاب والقوة السليطة . ويتكلم (فكارو) بالتفصيل عما يحدث أثر كل حرب أو غزو عمرانى فى قيام صراعات بين المنتصرين والمهزومين ثم بين المنتصرين أنفسهم على السلطة والامتيازات ، وأخيراً بين المهزومين وانشقاقهم إلى فئات بعضها يناصر القوى المنتصرة ، والبعض الآخر يناصبها العداء .

وبعد ذلك يتماثل الجميع فى وحدة المجتمع . وسرعان ما تقوم عوامل الصراع من جديد لأسباب ورواسب تركتها الصراعات الأولى وهكذا دواليك لا ينضب لهذه الصراعات معين . ويربط (فكارو) بين مظاهر الصراع ونطاقاته وبين مختلف أشكال الحكم (التيوقراطية والدكتاتورية ، والأرستقراطية والديمقراطية) كما يربط بينها وبين مبلغ قسوة التشريعات الجنائية والقوانين الوضعية المحلية . ويربط بينها كذلك وبين مختلف الظواهر الاجتماعية كالتقسيم الطبقى والامتيازات الطائفية والتغير الاجتماعى والتكنولوجى والاقتصادى . وكان دائماً يؤيد وجهات نظره بأمثلة مستمرة من الأنثروبولوجيا الاجتماعية ووصف حالة الشعوب ومن التاريخ قديمه وحديثه ومن الشواهد الملحوظة والعلاقات السياسية والاقتصادية لدرجة أن آراءه صادفت قدراً من النجاح ، واقتنع بها بعض المعارضين للداروينية .

وإذا تركنا الناحية النظرية لفلسفة الحرب ، نجد من الناحية العملية والتطبيقية اهتمامات على جانب من الأهمية بالنواحى العسكرية وتكوين الجيوش والاستعداد للحرب حتى أصبح حديث الحرب هو الحديث الذى يلوك الألسنة فى كافة الشعوب ضعيفها وقويها . ولجأت الأمم العسكرية القوية إلى الاستعانة بعلماء النفس والاجتماع فى دراسة أحوال القوات المحاربة والقيام بالتجارب التى تحقق أقصى قدر من الكفاية واستغلال الطاقة فى القوة البشرية العاملة فى الميدان . والانتفاع بوسائل الدعاية والإعلام والتعبئة القومية والعقائدية وتحقيق السيطرة على أفكار الشعب وتوجيهه إلى التضحية والفداء والفناء فى تمجيد القوة وتحقيق النصر . وقد زادت هذه الاهتمامات فى فترة ما بين الحربين وبعد الحرب العالمية الثانية . وذلك لدراسة أسباب الهزيمة وأسباب النصر والبحث فى العوامل الذاتية والاجتماعية التى أدت إلى ما انتهت إليه الحرب . ومن ثم دخلت الدراسات والأبحاث الاجتماعية بعمق

فى مجال القوى العسكرية للانتفاع بنتائجها فى استغلال الطاقة المحاربة وأحكام توجيهها ضماناً للنصر وللقضاء على الأفكار الاتكالية والانهزامية والرجعية التى تقل من قوة الجيش . ومن أهم الدراسات التى تجرى فى هذا المجال : دراسة الميول والرغبات والاتجاهات والمشكلات الاجتماعية والخدمات اللازمة والتى ينبغى أن تؤدى للإنعاش والترفيه الاجتماعى والضغوط الاجتماعية التى يئن منها المجندين ، وتحليل الوظائف المطلوبة فى مختلف الدرجات والرتب العسكرية . وقياس الرأى العام بين الفرق وموقف الجيش من المدنيين وقياس العلاقات الاجتماعية بين الفرق العسكرية ومبلغ تعاونها أو تنافسها . ودراسة أفضل الوسائل لتقوية الروح المعنوية والتعبئة الكلية والدعاية والإعلام ووسائل الحرب الباردة ومبلغ أثرها ثم توجيه الجنود إلى الحياة المدنية بعد الحرب . كل هذه الموضوعات وما إليها أصبحت مادة غنية للدراسة والبحث الاجتماعى .

الآثار الاجتماعية للحرب

وبعد هذا العرض والتحليل لا يفوتنا أن نشير إلى آثار الحروب فى حياة المجتمع وفى نظمه وظواهره ومدى ما تحدثه من تغيرات وتحولات فى الحياة الاجتماعية . وغنى عن البيان أن هذه الآثار والتغيرات والتحولات متعددة ومتشعبة وعميقة وجذرية فى كثير من الأحوال فضلا عن ارتباطها بكل قطاعات الحياة الاجتماعية . والكلام فيها بالتفصيل تضيق عنه هذه الفقرة من الكتاب . ولكنى سأشير إلى رءوس الموضوعات والنقط البارزة التى ينبغى على الباحثين أن يسلطوا عليها أضواء الدراسة والبحث وتتلخص هذه الاعتبارات الأساسية فيما يأتى :

١ — لما كانت الحرب ضرورية ولها أسبابها العميقة فى طبيعة الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، كان الاستعداد لها أمراً ضرورياً ولازماً . ومن ثم لا بد من التعبئة القومية والتربية العسكرية وتخصيص قدر يذكر من ميزانية الدولة للوفاء بكل ما تتطلبه الاستعدادات الحربية ولعلنا نذكر المثل اللاتينى المأثور « إذا أردت السلام فاستعد للحرب » «Sivis pacem Para bellum»

٢ — إلى أي مدى تعتبر الحرب وسيلة للاصطفاء الاجتماعي ؟ وقد أثيرت هذه القضية

من جوانب وزوايا متعددة . فالمعروف أن الجيش يتكون دائماً من أفضل عناصر المجتمع : تكويناً وصحة ، وأخلاقاً وسلوكاً وقدرات لأن العناصر الضعيفة والمشلولة وفاسدى الأخلاق والأدنى فى القدرات والاستعدادات تستبعد عادة من الجيش . ولما كان العبء الأكبر من الخسارة تقع على كاهله فى أثناء الحرب سواء خرج منتصراً أو مهزوماً . فإنه سيخسر جزء غير يسير من أفضل العناصر بالنسبة لباقى الأقل شأناً . وهذا معناه « أن الحرب تتيح بقاء غير الأصلح وتقضى على الأصلح » وقديماً كان الرومان يقولون « إن الحرب تترك المستضعفين وتقضى على الأقوياء والطموحين «Parcere subjects et debellare Superbos» وهذه القضية كانت موضع جدل وامتحان شاق بين كثير من المفكرين سواء المؤيدين أو المعارضين لظاهرة الحرب . ومهما يكن من شأن تفسير هذه القضايا فن المسلم به أن الحرب وسيلة أوجهاز للاصطفاء الجمعى .

٣ — لا ننكر أثر الحرب على الظواهر الحيوية والصحية مثل ارتفاع أو انخفاض معدلات الزواج والطلاق ، ومعدلات المواليد والوفيات ، ومعدلات المصابين بالأمراض ، وانتشار الأمراض المعدية سريعة العدوى ؛ والمصابين بحوادث الحرب ؛ ومعدلات الأمراض العصبية والهزات العقلية .

٤ — أثر الحرب فى الظواهر الاقتصادية مثل الرواج التجارى وزيادة حجم التبادل ومعدلات الاستيراد والتصدير ، والإنتاج ومبلغ انعكاس ضعف الصحة العامة وفناء الطاقة المنتجة فى الدخل القومى . وظواهر التهريب والسوق السوداء ، وظهور طبقات من المنتفعين والوسطاء وأغنياء الحرب ، ومعدلات الأجور والمرتبات ومكافآت الحرب وظهور صناعات تخدم أغراض الحرب وأخرى وسيطة وبديلة ، واتجاه التصنيع لخدمة أغراض الحرب وتحويل جزء كبير من ميزانية الدولة لتغطية نفقاته وما ينجم عنه من أعمال التدمير والتخريب الشامل وما إلى ذلك من الظواهر الاقتصادية التى تتصل بالحرب بصفة مباشرة أو غير مباشرة .

٥ — أثر الحرب فى القيم الأخلاقية ومعايير السلوك الاجتماعى والعادات والعرف والتقاليد وما يتصل بها من المتواضعات الاجتماعية ويدخل فى نطاق هذه الدراسة صلة الحرب بظواهر التسول والتشرد والنسل والسرقة والسطو والنهب والسلب وانحراف الأحداث ، وارتكاب الجنح والجرائم وموجات الانتحار والقتل والاعتداء وما إليها من الظواهر غير

السوية التى تتصل بصفة مباشرة أو غير مباشرة بقيم المجتمع ومثله الأخلاقية ومعايير السلوك الاجتماعى .

٦ — أثر الحرب على النظم السياسية وما يتصل بها . ويدخل فى نطاق هذه الدراسة أثر الحرب على الحريات العامة والخاصة ومظاهر الحكم واتجاهاته والاتجاهات الاستعمارية والتكتلات والأحلاف والمعسكرات السياسية والنزعات القومية والمنظمات الإقليمية والدولية وكل ما يتصل بالظواهر السياسية .

٧ — أثر الحرب فى الحراك الاجتماعى والتقسيم الطبقى والتنظيم الاجتماعى : وإعادة تنظيم الهرم الطبقى والامتيازات الطائفية وتشمل هذه الآثار الحراك بمظهريه الأفقى والرأسى وإعادة بناء الفئات والطبقات والروابط الاجتماعية .

٨ — أثر الحرب فى المعتقدات والأفكار والأيديولوجيات والنواحى العقلية والمذهبية والأذواق العامة والنقابات .

٩ — أثر الحرب فى التربية والتعليم وفى العلوم والفنون التى تعتبر أقدس ذخيرة فى الإنسانية ورأسمالها التى أسهمت فى تكوينه عبر الأجيال . ويدخل فى ذلك أثره فى تكوين المواطن علمياً وثقافياً .

١٠ — أثر الحرب فى النظم القانونية والقضائية والتشريعات المدنية والجنائية وما إليها . ويدخل فى هذا النطاق أثره فى الأجهزة الإدارية .

١١ — أثر الحرب فى الغزو العمرانى وظواهر الهجرة الداخلية والخارجية والعزلة الاجتماعية . ويدخل فى نطاق هذه الدراسة أثره فى الأقليات العنصرية والمذهبية والطائفية ومبلغ ما تؤديه الحرب من حجر أو سيولة اجتماعية فى هذا الصدد .

وعلى هذا النحو لا نجد منشطاً من مناشط المجتمع أو أية ظاهرة أو نظام إلا ويتأثر إن قليلا أو كثيراً ، بصفة مباشرة أو غير مباشرة بالحروب ، فى أثنائها وبعد انتهائها . وما أشرت إليه يعتبر ضرباً من الأمثلة التى تدل على قوة الآثار وسعة انتشارها وعمقها .